المبحث الأول

الحياة والموت وفلسفتهما الجمالية

إنّ الحياة والموت شكلتا جزءًا كبيرًا من وجود الإنسان واحتلّ القلق والحيرة إزاءهما ذهنه، وهو يواكب هذه الديمومة الحياتية الرتيبة ما بين الحياة ومتطلباتها سطوة الموت الذي هو نقيض الحياة[١]. فنرى الإنسان يستسلم تارة لمتطلبات الحياة ممارسًا إياها بكل حيوية متجاوزًا العراقيل التي أمامه. ويرفض الخضوع متمردًا ويحاول تكوين ذاته في خضم مجريات الحياة تارة أخرى. وهنا تكمن القيمة الإنسانية التي ميزه الله عز وجل بها. فالإنسان أحبّ الحياة وتعلق بها مع علمه بوجود حقيقة الموت الذي ينهي الحياة. ومن هنا يبدأ الصراع الفكري للإنسان ما بين الرفض والقبول، رفض العيش في حياةٍ هو يعلم أنّ لها نهاية حتمية وقبوله بهذه النهاية - وهو مرغم - إذ ليس له سلطان على الموت بل العكس، وهذا الأمر كوّن عنده قلقًا مستمرًّا متكوّنًا «من الحرص على الحياة والخوف من الموت بعيدًا عن أي اعتبار عقائدي»[٢].

وقلق الموت تولد حالة انفعالية غير سارّة، فهو يجعل من الفرد متأملاً في وفاته هو، متضمنًا مشاعر ذاتية من عدم السرور والانشغال بمظاهر النفس، مبتعدًا عن مباهج الحياة المتمثلة بقيم الجمال الموجودة حوله[٣].

إنّ الإنسان موقنٌ أنّ الموت قدرٌ يستهدف الحياة، لذا نرى الصراع والمقت والتناسي أبرز السمات الإنسانية التي أراد من خلالها مجابهة الموت، وكذلك الانحياز والحرص على الحياة، وهو نزوع إنساني طبيعي؛ لأنّ الحياة مكمن الآمال والأحلام والإنجازات قبالة الموت الذي هو اغتيال للآمال ووأْد الأحلام، لذا فالحياة مضمون إيجابي يقابل الموت الذي هو معنى مجرد ومضمون سلبي، ومن هنا نشأ الصراع بينهما. وهذا الصراع في جوهره صراع بين جميل مرغوب فيه يُخاف عليه (الحياة) وجليل مرهوب

(١) ينظر: الموت والعبقرية: ٥.
(٢) الحياة والموت في شعر عهد بني أيوب (٥٦٧-٦٤٨هـ) (رسالة ماجستير): ١.
(٣) ينظر: قلق الموت: ٣٩.

منه يُخاف وقوعه (الموت)؛ إلا أنّ الجميل يسعى إلى طلب الديمومة بإرادة عاجزة مغلوبة، والجليل يأبى ويقول باستحالة الخلود وحتمية الموت المقدر(١).

إذن، فالموت حادث عنيف يكسر إيقاع الحياة الرتيب نسبيًّا، بل يوقف دورتها ويجعلها تقف جامدة عند تاريخ يستحيل أن تتحرك بعده، فإذا كانت في الحياة الدنيا للإنسان حوادث مهمة فإن الموت آخرها وأهمها ومُنهيها، مع ذلك فاتجاهنا نحو الموت اتجاه متناقض، ومرجع هذا التناقض أننا نُسلّم به ولا نُذكره، لكننا مع ذلك نكرهه ونمقته مع توقعه، لكن معظمنا يود من صميم قلبه أن يتأخر مجيئه، فالموت إذن قيمة مجهولة عنا، وهنا تكمن جماليته وجلاله(٢).

والشعراء وقفوا يصورون قضايا الدنيا الكثيرة وحازت ثنائية الحياة والموت حيزًا كبيرًا من تأملاتهم، «ولا شك في أنّ الشعر من أقدر الأنواع الأدبية على تصوير التجربة الإنسانية في مواجهة الكون والحياة»(٣). لذا كوّن الشاعر في فكره القيمة الجمالية من وراء حياته وتجاربه فيها وتصوير نهايته وجعلها ذات قيمة إنسانية جمالية، لكي تخلد ذكره وتعطي لحياته معنى.

والمعاناة الحقيقية توثق الصلة بين الشاعر وموضوعه وتجعلها أكثر عمقًا وتفاعلاً، وهذا ما نجده منعكسًا بوضوح على النتاج الشعري الذي سنقدمه لاحقًا. ونبدأ الحديث عن فلسفة الحياة وقيمتها الجمالية فيما يخص الشاعر الأندلسي وشعره.

الحياة:

أحبَّ الأندلسي الحياة وعاش تفاصيلها بكل نشاط وحيوية، مكونًا في خياله الشعري القيمة الجمالية من وراء حياته وأسباب عيشه في الدنيا، لذا نراه يتمسك بالحياة مقبلاً عليها بنهم محاولاً الاستمتاع بلذائذها، فالأندلسي أكثر شغفًا وتعلقًا بالحياة لأنّ بلاده تميزت بالجمال والحرية وكثرة وسائل اللهو والمتعة من مجالس للغناء والخمر والأدب.

وبما أنّ الحياة مرهونة بحدث آخر يحد من كيانها ويهدد دوامها وهو حدث الموت، نرى الشاعر الأندلسي يحاول أن يسير مع الحياة بوجود الموت إلى جانبها زاهدًا فيها

(١) ينظر: الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام: ١١١.
(٢) ينظر: قلق الموت: ١٧.
(٣) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: ١٣.

مرة، أو يائسًا منها حزينًا مرة أخرى، أو على العكس تمامًا نراه فرحًا تأخذه حياة اللهو والمتعة هربًا كان أم استسلامًا لغرائزه، أو ربما شعورًا منه بقيمة هذه الحياة ومعرفة جمالها. لذا نجده يستمتع بكل لحظة منها من دون شعور بخوف من هذا المجهول (الموت) الذي يتربص به كل حين، وينقضّ عليه في أي وقت.

لقد جعلت الحياة الشاعر يُكثر من التفكير والتأمل فيها، فمصير الإنسان وحتمية الأقدار وكثرة نزول البلاء وضعفه أمامه جعل منه المتأمل الباحث عن الأسباب والقيم الروحية والجمالية التي تكوّن حياته ونظرته الفلسفية تجاهه. فالشاعر الأندلسي الذي ذاق حلاوة الإيمان والتقوى وشعر بقرب الأجل وقصر الحياة وزوالها زهد فيها ودعا إلى التخلي عن لذاتها متخذًا موقفًا سلبيًّا من الحياة في أغلب الأوقات.

إنّ التيار المادي الحسي العابث في الأندلس أثر في تقوية التيار المتمسك بالعفة والطهارة والتزهد في الدنيا ومتاعها، وهذا الأمر جاء كردِّ فعلٍ طبيعي على التيار الأول[1]، وصار شعراء الزهد تبعًا لذلك يعيشون في أجواء روحانية فيها نفور عن الدنيا ورفض زخرفها وإحساس عميق بقربهم لما بعدها، وهذا جعلهم ينصرفون عن المادة وتفرغهم للروح ومجاهدة النفس وترويضها عن الاستمتاع بكل ما في الحياة. وكان لهذا الأمر تأثير نفسي واضح في الشعر، فالدنيا لا تشغلهم عن التفكير في العبادة والتقرب من الله عز وجل ابتغاء رضوانه ورحمته[2]؛ مما قدّم لنا صورة عن حياة الزاهد الذي أيقن قرب موته واستسلامه بهذا القضاء، مكونًا القيمة الجمالية لحياة الإنسان المستقيم الزاهد في الحياة خوفًا من العقاب أو حبًّا في التقرب والثواب.

إنّ الحياة الدنيا دار فناء فعلى المرء ألّا تغره بآمالها الكاذبة الخادعة، وفي هذه المعاني يقول ابن عبد ربه:

ألا إنّما الدُّنيا نضارةُ أيْكةٍ ... إذا اخضرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانبُ
هِيَ الدَّار ما الآمالُ إلا فَجَائعٌ ... عليها ولا اللَّذّاتُ إلا مصائبُ[3]

(١) ينظر: صورة المجتمع الأندلسي: ١٨٧.
(٢) ينظر: الأدب العربي في الأندلس، د. علي محمد سلامة: ٢٢٢.
(٣) ديوان ابن عبد ربه: ٢١-٢٢.

فالشاعر جعل للذات حياة يعيشها في الدنيا، وهذه الحياة هي مصائب للإنسان لأنها تجره إلى عذاب أليم يوم الحساب، وما دامت الحياة دار فناء فلماذا نبكي على من ذهب منها وإننا غدًا لذاهبون أيضًا.

وأما الزاهد أبو وهب عبد الرحمن العباسي القرطبي (ت٣٤٤ هـ)[١] الذي لم يكن يملك منزلاً يقيه البرد وينام فيه، ولا ثوبًا غير الثوب الذي يستر جسده، ولا مالاً يكنزه يقيه شر المصائب وفتن الحياة وخوف الفقر وسؤال الآخرين، يقول:

أنا في حالتي التي قَد تَراني ... أحسنُ الناسِ إن تفكَّرْتَ حالا
منزلي حيثُ شئتُ مِن مُستقرِّ الـ ... ـأرضِ، أُسقى من المياهِ زلالا
ليسَ لي كسوةٌ أخافُ عليها ... من مُغيرٍ، ولا ترى ليَ مالا
أجعلُ الساعدَ اليمينَ وِسادي ... ثمّ أَثنيِ إذا انقلبتُ الشِّمالا
قد تلذذتُ حقبةً بأمورٍ ... فتدبّرتُها فكانتْ خيالا[٢]

إنه يرى نفسه أسعد الناس لأنه لا يملك شيئًا يخاف عليه من مغير أو ناهب وتكفيه جرعات من ماء، وإذا نام اتخذ يمينه وسادة فإن تعب ثنى الشمال وسادة أيضًا. إنّ هذه النظرة التي قد تكونت عند الشاعر للحياة هي نظرة القانع لما عنده وإن لم يكن شيئًا معللاً نفسه بأنه الأفضل، فهو لا ينشغل بأمور الدنيا وما ينشغل بها غيره من سلطان ومتاع وصراع من أجل العيش. فالقيمة التي كوّنها داخل ذاته في عدم الانشغال بغير السعادة الروحية التي لا نجدها عند كثير ممن يملكون من متاع الحياة الشيء الكثير. ويبدو أنّ شاعرنا قنع بهذه الحياة وأحسّ بسعادتها وجمالها فنراه يقول أيضًا:

تنامُ وقد أعِدّ لكَ السُّهادُ ... وتوقِنُ بالرحيلِ وليس زادُ
وتصبحُ مثلَ ما تُمسي مضيعًا ... كأنّكَ لستَ تَدري ما المرادُ
أتَطمعُ أنْ تَفوزَ غدًا هنيئًا ... ولم يكُ منكَ في الدنيا اجتهادُ
إذا فرّطتَ في تقديمِ زرعٍ ... فكيفَ يكونُ من عدمٍ حصادُ[٣]

إنه يتعجب ممن يقضي ليله ونهاره في النوم واللهو وهو يعلم أنّه قد هُيِّئ له سهادٌ طويل من دون اتخاذ زاد لهذه الرحلة، بل العكس فهو ساهٍ غير دارٍ من أمره شيئًا. إنّ

(١) هو أبو وهب عبد الرحمن العباسي، كان زاهدًا مجاب الدعوة، سكن قرطبة ومات فيها، وعُرف بين الناس أنه مدخول العقل. ينظر: المغرب في حلى المغرب: ٥٨/١، ونفح الطيب: ٢٢٦/٣.
(٢) المغرب في حلى المغرب: ٥٨/١.
(٣) نفح الطيب: ٢٢٦/٣.

القيمة الجمالية من وراء حياة الزاهد تكمن في محاسبة النفس واتخاذ العبادة والتنسك منهجًا في الحياة، وهذه هي التي تبلغه الدرجات العلى عند الله سبحانه وتعالى.

وهذا أبو الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ)[١] ينصح بالزهد في الدنيا وعيش حياة الكفاف لأنّ الفناء والموت هو عاقبة كل إنسان. يقول:

تبلّغْ إلى الدنيا بأيسرِ زادِ ... فإنّكَ عنها راحلٌ لمَعادِ
وغُضَّ عنِ الدنيا وزخرفِ أهلِها ... جفونَكَ واكحلْها بطولِ سُهادِ
وجاهدْ عنِ اللذاتِ نفسَكَ جاهدًا ... فإنّ جهادَ النفسِ خيرُ جِهادِ
فما هذهِ الدنيا بدارِ إقامةٍ ... فيُعتدّ من أغراضِها بعتادِ
وما هي إلّا دارُ لهوٍ وفتنةٍ ... وإن قصارى أهلها لِنفادِ[٢]

فقيمة العيش في الحياة عنده في جعلها المبلغ التي توصله إلى الحياة الآخرة، وذلك من خلال ترك مفاتنها الفانية والاستعداد للدار الباقية بجهاد النفس؛ لأنّ غاية الدنيا وجمالها سراب غير باقٍ.

إذن، القيمة الجمالية للشعر الذي مثّل حياة الشاعر الأندلسي الزاهد تكمن في ترك الملذات مخافة العذاب، وهذا الأمر أعطى بُعدًا نفسيًّا وقيمة روحية له، فهو العبد الطائع لأوامر من يعبد، بل إنه ترك المباح مخافة الوقوع في غير المباح، وهذا تعب وإرهاق للنفس ارتضاه الزاهد كي ينال الدرجة الرفيعة والمكانة عند الله عز وجل. مع أنّ هذا الأمر ولّد لديهم موقفًا سلبيًّا من الحياة من خلال هذه النظرة الضيقة، فهي لا تصور إلا الجانب المعتم من الحياة مهملة الجانب المشرق منها وما فيها من قيم جمالية (مباحة) هي من صميم الحياة والعيش في الدنيا.

ومن هنا فقد يكون مثل هؤلاء الشعراء لم تُتَح لهم فرص الشهرة والكسب والثراء، فآثروا الانزواء خلف الزهد وترك تلك الأمور المادية، والتوجه إلى القيم الروحية والمعنوية السامية التي ترفع من شأنهم ومن شعرهم عوضًا عن الثراء والمال والمنصب.

---

(١) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي، أحد أقطاب المذهب المالكي، كانت له رحلة إلى المشرق، وله تصانيف عدة، توفي سنة (٤٧٤هـ). ينظر: قلائد العقيان: ٥٩٩/٣، والمغرب في حلى المغرب: ٤٠٤/١، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٧٦/٣/٢، ونفح الطيب: ٦٧/٢.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٨٣/٣/٢.

وكان شعرهم صورة واقعية وواضحة لهذا الزهد، وبرز فيه كل تلك القيم الجمالية للروح وأبقت على نفوسهم الشفافة والواضحة ومشاعرهم الحقيقية بلا زيف أو مبالغة أو تزويق.

وأما القسم الآخر من شعراء الأندلس وهم الذين سئموا الحياة لعدم قدرتهم على تحمّل أعباء العيش وتكاليفه ، فإننا نرى الحزن واليأس وتكالب الخطوب عليهم بسبب كثرة الأزمات والمصائب. ومن هنا كانت القيمة الجمالية المرتبطة بالحياة عندهم قد اهتزت، فاقدين إيمانهم بالحياة وحبهم لها، لذا اتجهوا للتزهد وترك الدنيا في أخريات حياتهم ليمثل حالة من حالات الشعور بانقضاء العمر والتحسر على ما فات منه من دون جدوى، ومن دون أن يجدوا معنًى لحياتهم التي قضوها. وهذا دعاهم للتنسك في أواخر أعمارهم تائبين متمسكين بالقيم الروحية، جاعلين منها عنصر الجمال عندهم، لذلك نراهم يميلون إلى الطعن بغدر الأيام وغرور الحياة ومكرها، ونظرتهم وتصورهم للحياة متداخلة مع نظرة وتصور شعراء الزهد، وما عُرف عن شعرهم من قيم ومبادئ.

فالشاعر ابن عبد ربه نراه متشائمًا في نظرته للحياة؛ لأنها خلت من كل خير، فهي تنتقل من سيئ إلى أسوأ؛ لأنّ أهل اللؤم والبخل هم من بقي فيها وللأسف الشديد، فأهل الخير والكرم من الناس قد غادروها وبقي أهل الشح والطمع والشر، فلنستمع إلى قوله البليغ في هذا:

وأيّام خلَتْ من كلِّ خَيْرٍ ودُنيا قد تَوَزّعها الكِلابُ
كلابٌ لو سألتَهم تُرَابًا لقالوا: عندنا انقطع التّرابُ[1]

هذه نظرة متشائمة نحو الحياة؛ لأنّ قيمة العيش فيها بحسب نظر الشاعر قد زالت ولم يعد هناك مكان لعنصر الخير فيها. هذا فيما يخص نظرة الشاعر ومدى تأثره بالحياة والبيئة من حوله. أما إذا أحس الإنسان بقرب أجله لمرض أو علّةٍ فنراه يندب حظه ونفسه ويتأمل أيام حياته. وهذا ما حدث للشاعر ابن شُهيد، فقد جعلته علته التي أُصيب بها في أخريات حياته وأقعدته عن الحركة وتسببت في موته فيما بعد، قد جعلت قيمة الحياة والتعلق بها تخبت وتتلاشى، بل تزول رويدًا رويدًا. يقول:

تَأمَّلتُ ما أفنيت مِن طَول مُدَّتي فلم أرَهُ إلا كلمحةِ ناظِرِ

(١) ديوان ابن عبد ربه: ٢٥.

وحَصَّلْتُ ما أدركْتُ مِن طَول لذّتي فلم ألْفِهِ إلّا كصَفْقةِ خاسِرِ
وَما أنا إلا رَهْنُ ما قَدَّمَتْ يَدي إذا غادَرُوني بَيْنَ أَهْلِ المَقابِرِ(١)

إنّ إحساسه بخيبة الأمل للعمر الذي انقضى وتراكم همومه متأملاً أيام حياته ليراها قصيرة، بل هي صفقة خاسرة أيضًا لكثرة ما أسرف فيها وارتكب من الآثام، لكن نجاته من العذاب بعد موته تكون بما قدمت يداه من صالح الأعمال، وهنا تكمن جمالية الحياة وقيمتها عنده، إذ هو قريب من الموت بأن يحس بطعم الحياة ولو لآخر مرة، وتحسّس جماليته من خلال هذا التعلق وطلب العمل الصالح الذي أراد فعله ولم يفعله سلفًا. فلا يجوز للإنسان أن يتأسف على ما فاته أو ما حرمته الحياة؛ لأنّ هذا التأسف لن يجدي نفعًا؛ لأنّ الحياة ماضية غير متوقفة وهي إن أخذت لا تعطي، وإن أعطت أخذته مرة أخرى؛ لكن ابن شُهيد على الرغم من دعوته السابقة نراه يقول في نصٍّ آخر:

ولمَّا رأَيْتُ العَيْشَ وَلّى برأسِهِ وأيقَنْتُ أن المَوْتَ لا شَكَّ لاحِقِي
تمنَّيْتُ أنِّي ساكِنٌ في غَيابةٍ بأَعْلَى مَهَبِّ الرِّيحِ في رأسِ شاهِقِ(٢)

إنّ ذات الشاعر حين إحساسها بقرب رحيلها من الحياة تُحدث صراعًا متأججًا بين نهايته الحتمية وتلهفه إلى الحياة وتمسكه بها، وهذه غريزة أوجدها الله تعالى في الإنسان وهو حب البقاء وكره الموت، فالشاعر حين أدرك أنّ الموت يتوجه نحوه مرسلاً كل يوم علامة من علاماته يتمنى لو يستطيع الهرب منه وذلك بأن يسكن بأعلى قمة من جبلٍ عالٍ لا يدركه أحد، لكن أنّى له هذا والموت لا يقف شيء أمامه، فقيمة هذا الإنسان الذي كوّنه الشاعر هو في حبه وتعلّقه بالحياة على الرغم من الصعاب وما أحسه من غبن وإرهاق وألم وحزن، إلا أنه لم ينسَ حبه وتعلقه بهذا الجمال ألا وهو الحياة.

وأما عن شعر أبي إسحاق الألبيري، فكان على عادته من الزهد والتمسك بالقيم الدينية، ومن هنا فقد برزت هذه القيم في شعره في مثل قوله:

لا عَيشَ يَصفو لِلمُلوكِ وَإِنَّما تَصفو وَتُحمَدُ عيشَةُ النُسّاكِ(٣)

(١) ديوان ابن شُهيد: ١١٣.
(٢) م. ن: ١٣٣.
(٣) ديوان أبي إسحاق الألبيري: ٤٣.

إنّ فلسفة الزهد في الحياة والتمسك بما يوصل للآخرة هو القيمة العليا التي نادى بها دعاة الزهد في كل عصر. فجمال حياتهم وقيمتها في ترك ما بين أيديهم من مُلك والعيش في الدنيا على شاكلة النسّاك المتعبدين؛ لأنها الحياة الحقيقية التي يُثاب المرء عليها في دنياه وآخرته، ويكون ثواب الدنيا في صفوة وراحة النفس من هموم العيش والمُلك ومعاناتهما، وهذا الأمر من أعظم القيم الروحية التي نالها الزاهد في حياته وقنع بها وترجمها في شعره.

ومن ثَمَّ نرى الألبيري يتعجب من الذين يتلذذون ويسعدون بالحياة غافلين عن مصيرهم المحتوم (الموت) مع علمهم بأنه يتربص بهم. فالموت كحامل سهم يفاجئ ويرمي بسهامه في أية لحظة، فلنستمع لقوله:

كَيفَ يَلتَذُّ بِالحَياةِ لَبيبٌ ... فَوَّقَت نَحوَهُ المَنِيَّةُ أَسهُمْ
لَيسَ يَدري مَتى يُفاجيهِ مِنها ... صائِبٌ يَقصِفُ الظُّهورَ وَيَقصِمْ[1]

وهذا السميسر الألبيري يقول أيضًا:

لا تغرَّنّكَ الحياةُ فموجودُها عَدَمْ
ليس في البرقِ مُتعةٌ لامرئٍ يخبطُ الظَّلَمْ[2]

إنّ دوام الحياة وما فيها محال، والبيت الأول يعكس مفارقة معيشة بين مفاتن الحياة وغرورها ودوامها، ومثل هذه الحياة بزينتها وغرورها ومفاتنها كالذي يرتجي في ضوء البرق الخاطف نورًا وضياءً في ظلام أو سواد، والبيتان عكسا القيم الروحية الجمالية لحياة الشاعر الذي قد نراه من خلالهما في التأسف على ما فاته ولا سيما بقوله الهجاء والإفحاش به، والنَّيل من الآخرين والطعن بهم وبأعراضهم.

ومن هنا فالشاعر السميسر يبرز هذه القيم الجمالية الروحية بعد معاناة مع الواقع وما فيه. فكان شعره ناجمًا عن غربة معيشة صادقة، نابعًا من تمثل عميق لهذه القيم والمفاهيم الروحية.

وكذلك نجد شاعرًا آخر وهو ابن وهبون المرسي (ت٤٨٣ هـ) يتحدث عن حياته وكل من شاكله من الشعراء ومن سار سيرهم في مدح السلطان وأهل النفوذ، يقول:

---

(١) م. ن: ٥٧.
(٢) السميسر، حياته وشعره (بحث): ١٥٠.

لكـــم خُلِقْنـــا ولـــم نُخلَـــقْ لأنفسِـــنا فإنّمـــا نحـــنُ تحميـــدٌ وتمجيـــدُ[1]

إنّ الشاعر يجد لنفسه حياةً بُنيت على أساس النفاق، فهو يعلن عنها صراحة دونما حرج أو تردد، ويرى أنه لم يخلق لنفسه وللتمتع بالحياة وإنما خُلِق لأ هل النفوذ والسلطان ومن يمتلك المال، ومن ثَمّ لا يجد في نفاقه هذا غرابة فما سبب خلقه ـــ بحسب رأيه ـــ سوى من أجل مصلحتهم وتحميدهم وتمجيد أفعالهم. إنّ قيمة الحياة عنده منهارة تبحث عن ذاتها فلا تجده سوى في أحضان النفاق الذي أعلنه، ولذا لم يجد لذةً وإحساسًا بجمال الحياة لأنه مسلوب الإرادة والإحساس، فحياته مرهونة بقوة نفاقه وإخلاصه فيه دونما ذكر أو رسمٍ لحياته الخاصة.

إنّ شعراء هذا القسم والقسم الأول تداخلت أفكارهم ونظرتهم نحو الحياة متمثلة بالدعوة إلى الزهد فيها وعدم الاغترار والاطمئنان إليها، فهي مليئة بالتناقضات والغدر، وعمر الإنسان فيها قصير مهما طال، ولا بدَّ من استثماره بالعمل الصالح، لذا وجدنا عند شعراء القسم الثاني نظرة مختلفة من خلال القيمة العليا للحياة في تأملات تكشف عن تجربة ومعاناة مرَّ بها الشاعر انعكست على موقفه من الحياة ونظرته إليها، لذا وجدنا التشاؤم والإحساس بفقد الذات والاتجاه نحو الهروب والتزهد والدعوة للاستسلام لحتمية الموت والرضوخ لواقع الحياة مهما كان.

إنّ جمال الحياة وقيمتها في ظاهريته وشعورنا به وتحسس أنفسنا بموجوداته، وإن كثر فيه الألم والحزن وخيبة الأمل، إلا أنّ إحساس الإنسان تجاه ما يرى ويتلمس يكون أقوى وأكثر ملازمة من الذي يسمع ولا يراه، فالموت من الأمور الغيبية غير الظاهرة سوى في نتائجه، ولذلك نرى الكثير من الناس في غفلة عن ترقبه أو في تغافل عنه والتمسك بالحياة وما فيها من متع ولذة ولهو. وهؤلاء هم شعراء القسم الثالث في هذا المبحث، فهم على النقيض من سابقيهم، إذ نظروا إلى الحياة بعين المحبة والشعور بقيمة وجمال ما حولهم، داعين إلى أنواع من الملذات من مجون وخمر وترك الهموم والعيش من أجل اللهو والمتعة فقط، وهذه نظرة سلبية أيضًا؛ لأنها لا ترى من الحياة إلا اللذة، وهذه كانت ردة فعل للموت أو لطبيعة الحياة المترفة التي عاشها البعض، مع جزئية

(١) شعر ابن وهبون المرسي (رسالة ماجستير): ١٢٦.

نظرتهم هذه، وذلك بإشباع النفس بالمتع وترك الهموم دون التفكير بمصيرهم وجعل همهم في اغتنام الفرصة لنيل حياة اللهو والمجون.

ولذا وجدنا بعض الشعراء لهم مذهب خاص في العيش يقوم على أساس أنّ القيمة الحقيقية للحياة تكمن في حياة المجون والطرب والخمرة، و هذا ما نادى به أبو عامر بن مسلمة حين قال:

يـــا نـــديمي قـــم اصـــطبحْ وعلـــى العـــود فـــاقترحْ
إنمـــا العـــيش بالسَّـــما ع وبالنـــاي والقَـــدَحْ[1]

ومن الشعراء مَن دعا إلى اغتنام فرص الحياة لإحساسهم بقصرها وانقضائها، مما دفعهم إلى الإسراع في اقتناص اللذات واللهو في ريعان الشباب، فالحياة لا تجود بالأماني إلا في هذه المرحلة من عمرهم، فكلما تقدم العمر كلما كانوا أقرب للفناء، لذا نجد إحساسهم بالجمال أقوى من غيرهم؛ وذلك لطلبهم ولسعيهم نحو هذا الإحساس، فهم يبحثون عن أية قيمة جمالية تزيد من نشوتهم وطربهم وتنسيهم هموم حياتهم اليومية، فالطبيعة بجمالها والخمرة بنشوتها والمرأة بسحرها زاد من أعمارهم ومدَّ في آجالهم؛ لأنّ شعور الإنسان بقيمة اللحظة التي يحيا ها هو المعنى الحقيقي من عيشه وحياته التي يرجوها ويطلبها. لذا نجد الشاعر عبادة بن ماء السماء يدعو إلى اغتنام اللذة في عهد الصبا والشباب في مثل قوله:

أجْـلُ المدامـةَ فهـي خيـرُ عـروسِ تجلـو كـروبَ الـنفسِ بـالتنفيسِ
واسـتَغْنِمِ اللـذّاتِ فـي عهـد الصِّـبَا وأوانـهِ لا عطـرَ بعـدَ عـروسِ[2]

ويقول أيضًا:

اشـــربْ فعهـــدُ الشـــبابِ مُغْتَـــنَمُ وفرصـــةٌ فـــي فواتِهـــا نَـــدَمُ[3]

إنّ عمرَ الإنسان في مرحلة الصِّبا والشباب يكون ذا قيمة من الناحية الجسدية والعقلية، فقوة الأول وعدم نضج الثاني جعل من الإنسان في هذه المرحلة يصارع همومَ الحياة بقوة، داعيًا إلى التمسك بالأمل واغتنام الفرص لأنّ في (فواتِها ندمُ) على حدِّ

(١) شعر أبي عامر بن مسلمة (بحث): ١٥٥.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق١/١/٣٦٤.
(٣) م. ن: ق١/١/٣٦٤.

تعبيره. وقيمة حياة الشاب في قلة التفكير في عواقب الأمور، لذا نرى كثيرًا من الناس حين انقضاء هذه المرحلة يعودون لرشدهم نادمين تاركين ما كانوا عليه، والشعراء منهم.

ونجد ابن زيدون يدعو إلى اغتنام فرصة العيش واستغلال متع الحياة ولذائذها من دون انتظار. يقول في ذلك:

اغتنِمْ صفوَ الليالي إنّما العيشُ اختلاسُ[1]

ويكرر ابن عمار فكرة اغتنام الفرصة لكن بسرقتها من أيدي الزمان هذه المرة، يقول وهو يخاطب عضد الدولة:

يا عَضُدَ الدولةِ المصفّى من جوهرِ النَّبْلِ والذكاءِ
ماذا ترى في اصطباحِ يومٍ مذهَّبِ الصُّبحِ والمساءِ
نَسْرِقُهُ من يدي زمانٍ لم يَقسِمِ الرِّزقَ بالسَّواءِ[2]

إنّ الشاعر يحس بغبن في حياته لذا نراه يدعو إلى الشراب وسرقة فرصة اللهو واغتنامها. إنّ اللذائذ تأتي أحيانًا ممتزجة بشيء من المرارة في الحياة وهو الشعور بالغبن في تقسيم أسباب العيش ما بين الغنى والفقر أو الحاكم والمحكوم وهكذا، فقيمة حياة الإنسان كما يرسمها الشاعر في استحصاله قسرًا أسباب لهوه ما دام لم ينل منها ما يساويه بغيره ممن حوله.

وهذا المعتمد بن عباد يبلور فلسفته في الحياة وهو الملك الذي عاش حياة الترف وانقلاب الأحوال والسجن والذل والهوان. ونجد قيمة الحياة عنده قصيرة مهما طالت. ولذا جاءت دعوته بالتمتع بالحياة واغتنام فرص العيش فيها لأنها قصيرة سرعان ما تنقضي. يقول:

عَلِّل فُؤادَكَ قَد أَبَلّ عَليلُ وَاغنَم حَياتَكَ فَالبَقاءُ قَليلُ
لَو أَنَّ عُمرَكَ أَلفُ عامٍ كامِلٍ ما كانَ حَقًّا أَن يُقالَ طَويلُ[3]

إنّ جمال عمر الإنسان وقيمته فيما يقدّمه وما يخلد به هذا التقديم، لكن حين يفقد الأمل في البقاء ويشعر بدنو الأجل وقِصر العمر، يحاول تكوين مفهوم اغتنام الفرصة

(١) ديوان ابن زيدون: ٦٧.
(٢) قلائد العقيان: ٢٥٧/١. ولم ترد الأبيات في مجموع شعره.
(٣) ديوان المعتمد بن عباد: ٢٥.

و عدم ترك أية لحظة من دون اغتنامها، لكنه لم يحدد كيفية هذا الاغتنام، فهو الملك الشاعر الذي عُرف برهافة الحس، لذا لم يجد سوى هذا التعليل النفسي، وطلب الإسراع في تكوين الإنسان لذاته؛ لأنّ ساعات العمر في انقضاء مهما طالت!!

إذن، اختلف شعراء الأندلس في تكوين الفلسفة الجمالية التي نظروا بها إلى الحياة، ما بين زاهد ورافض أو محب قانع بها. فالأندلسي إجمالاً توّاقٌ إلى البقاء في الحياة، وما كان توجههم إلى الزهد سوى محاولة منهم لتحويل العمر الفاني إلى عمر باقٍ، من خلال إعطاء القيمة والجمال للحياة التي على المرء أن يستثمرها أحسن استثمار. وما قام به قسم من الشعراء الأندلسيين في طلب اللهو والمتعة، فهو عشق شديد للبقاء في الحياة أيضًا، ولكن بتوهّم وجودها فيما طلبوا من متع فانية ولهو محدود.

الموت:

الموت أمرٌ حتميٌّ ليس على الإنسان فقط، بل على المخلوقات كلها. ومشكلة الموت ليست وليدة اليوم، بل إنها شغلت حيزًا كبيرًا من تفكير الإنسان منذ أقدم العصور. فقد عولجت هذه الإشكالية عبر مختلف مراحل الفكر البشري ومستوياته، بدءًا من الفكر الأسطوري مثل أسطورة كلكامش، ومن ثَمَّ عالجها الفكر الديني من خلال أشهر الديانات، اليهودية والنصرانية والإسلامية. كما عالجها الفكر الفلسفي أيضًا من خلال ما قدّمه كبار الفلاسفة من دراسات وأبحاث. من هنا نجد أنّ تفكير الإنسان في حاله وتاريخه من أين أتى؟ وإلى أين هو ذاهب؟ يولّد أسئلة كثيرة تولّد هي بدورها عدم الراحة والقلق والخوف. وليس هذا الخوف إلا خوفًا من المجهول والغامض؛ لأنّ في الموت جوانب كثيرة مجهولة غامضة وخفية، كما أنها خبرة جديدة غير مسبوقة، ولذا يخاف كل إنسان من الموت بدرجات متفاوتة، لكن هنالك عوامل تؤثر في مدى خوفنا من الموت وكرهنا له، منها ضعف الإيمان وعدم قوة العقيدة وتناقض التسليم بأمور الدين... وما إلى ذلك(١).

و«هنالك تلازم لا انفكاك منه بين الحياة والموت، وذلك أنّ الموت هو النهاية الطبيعية والتي لا بد منها للحياة، وهذه حقيقة لا يمكن الجدل فيها»(٢). ولكن هذا التلازم غير حقيقي لأنّ الحياة «المبدأ الذي يجعل الكائن متصفًا بصفات معينة و هي عكس

(١) ينظر: المعرفة الجمالية في الموت (بحث): ٥٥-٥٦.
(٢) النفس (انفعالاتها وأمراضها وعلاجها): ٧٠٨/٢.

الموت»[١] الذي ينهي هذه الصفات، وهذا يحتّم عدم اجتماعهما مع وجود الصلة والتلازم بينهما، ولأنّ «الإحساس بتفاهة الحياة وعبثيتها متأتٍّ من فجيعة الموت، فالموت موجود متطور منذ بداية الحياة، وهو مقارن للحياة، إذ لا ينفصل عنها أنى وُجدت»[٢].

وبما أنّ الموت واقع لا محالة يجدر بالإنسان تقبله ليحفظ من ذاته التوازن الشخصي، مبعدًا عنها قلق الموت الذي يولّد فيه إرهاقًا شديدًا، وهذا يزداد إن لم يوازن الإنسان بين قلقي الموت والحياة، مما يجعلانه ينبذ كل شيء حتى الحياة نفسها.

ولذا لجأ الإنسان إلى الأديان ليُطمئن روحَهُ الحائرة أمام هذا القلق واللغز الذي حيّره، وهذا ما فعله الشاعر العربي حين اعتنق الإسلام، إذ جعل من الموت قضاء الله وحكمته في أن يعيش الإنسان عمرًا زائلاً في الدنيا، ومن ثَمَّ عمرًا خالدًا في الآخرة، وبهذا أبعد الخوف والرهبة من المجهول الذي ينتظر الإنسان بعد موته ــ بشكل نسبي ــ وجعل الحياة والموت اختبارًا وامتحانًا للإنسان لكي يوصلانه إلى حياة أخرى باقية[٣]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[٤].

وكثر الحديث عن الموت عند الفلاسفة والمتصوفة والشعراء، واختلفت وجهات نظرهم فيه ما بين حائرٍ تائه ومتقبل خاضع ورافض مشكك. فالموت عند الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية انتقال إلى حياة روحية خالصة هي أعظم وأوسع من الحياة التي يحياها الإنسان بجسده الفاني فهم متقبلون لهذا الموت غير خائفين منه بل نراهم يسعدون لتمام معرفتهم به، وهذا ما نجده عند ابن طفيل (ت٥٨١هـ) في (حي بن يقظان)[٥].

وأما عند الصوفي فالموت يخلّصه من قيود الجسد الذي يعوقه عن الاتحاد الأبدي بالله، فهو يجد في الموت ومفارقة الروح للجسد سعادته ومتعته لأنّ روحه تنال الخلد في الذات الإلهية[٦].

---

(١) فلسفة الموت عند اليونان (بحث): ٢٢.
(٢) العزلة والمجتمع: ١٤١.
(٣) ينظر: قلق الموت: ١٤.
(٤) سورة الملك: الآيتان: ١-٢.
(٥) ينظر: القيمة الروحية من الشعر العربي قديمه وحديثه: ١٦٣.
(٦) ينظر: القيمة الروحية من الشعر العربي قديمه وحديثه: ١٦٣.

وكثيرٌ هم الشعراء الذين أقلقتهم هذه المعضلة وأقضَّت مضاجعهم وشغلت أذهانهم، وقد بدت آثارها في سلوكهم ومجمل مواقفهم، فنظروا إلى الدنيا أو إلى الحياة نظرة متشائمة قاتمة مِلؤها الارتياب، فهي غدّارة غرّارة، وما الإنسان فيها إلا مخدوع مضلَّل يلهيه سراب كاذب عن حقيقة الموت الذي يترقبه كل حين. والذي ضاعف خوفه من الموت هو مباغتته للأحياء، فهو في عداد المجهول الذي لا يخضع لميقات، مما جعلهم ينساقون وراء ملذات الحياة - كما تقدم - تنسيهم رهبة الموت الذي يتسلل إليهم ببطء دون موعد(١).

وعلى الرغم من أنّ شعراء الأندلس آمنوا بالموت قدرًا محتّمًا ينزله الله على الإنسان، إلا أنّ الحزن ظلَّ قاسمهم المشترك لما يحسونه إزاء الحدث المؤلم. وهذا ما جعل تقاربًا في أفكارهم وتشابه حديثهم عنه. وهذا مرده إلى طبيعة النفس الإنسانية في مثل هذه الأحداث المتقاربة، فالموت واقع على الجميع، لذا كان الشعور والإحساس به متشابهًا ومتطابقًا عندهم.

والموت الجمالي يعني التغلب على الانقطاع بأن يحول الوعي -- عند الشاعر -- ذاته بوصفها وجودًا للموت إلى خطاب وحوار يبدأ من الموت نفسه، لكن لا ينتهي أبدًا لأنه يحيا في الموت من خلال تأمل مطلقيته وحضوره الكلي، وهذا التحول يعني أن تصبح الذات وجودًا للحياة التي ليست سوى مجال حركي لتحقق الإمكان(٢). فقيمة الذات الجمالية في وجودها ووعيها بالموت الذي يكوّن الإطار الخطابي الذي يخاطب به الوعي ذاته والذوات الأخرى، فيكون وجوده من خلال هذه القيمة الجمالية التي رآها في الموت.

إنّ الفكرة الجوهرية من وراء ذكر الموت وتأمله ومعرفة قيمته الجمالية الوصول إلى مفهوم الروح؛ لأنّ مفهوم الموت والروح مرتبطان ببعضهما البعض، وفي حقيقة الأمر يكون سؤالنا عن حقيقة الموت هو سؤال وبحث عن الروح، فإذا استطعنا أن نفهم جمالية الروح وقيمتها نكون قد تجاوزنا مشكلة الموت، وتخلصنا من الخوف والقلق تجاه الموت، بل نستطيع أن نحيا الحياة بسعادة وأن نتقبل الموت بسعادة أيضًا(٣). وهذا الأمر أوجده الإيمان ومعرفة الخالق ومدى الارتباط ما بين العبد وخالقه. ومن هنا وجدنا هذا

(١) ينظر: الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام: ١١٢.
(٢) ينظر: جماليات الشعر العربي: ٣١٥.
(٣) ينظر: المعرفة الجمالية في الموت (بحث): ٥٩.

الإحساس عند كثير من شعراء الأندلس الذين كانت أرواحهم متعلقة بالله سبحانه وتعالى، على عكس غيرهم ممن تاهوا في الحياة وأبعدوا أرواحهم عن القيمة الحقيقية والجمالية للروح، من ثمَّ خوفهم وشعورهم بالضياع إزاء الموت.

إنّ الشاعر عندما تمتد به الحياة وتدنو ساعته يتحدث عن الموت حديث الواعظ داعيًا إلى ترك ملذات الدنيا والاعتبار بأحوال الآخرين ممن تركوا الدنيا ولم ينالوا سوى القبر، «فالموت شيء طبيعي، والموت هو موتنا نحن ومع ذلك لا نفكر فيه إلا بوصفه موت الآخرين»[1]. لذا وجدنا أساليب بارزة ظهرت في الشعر الأندلسي في عرض فلسفة الموت دعوتهم للاتعاظ بمن مضى من خلال عرض شواهد من واقع الحياة والتاريخ، وهي تشير إلى فناء الأمم السابقة والحضارات القديمة والملوك والجبابرة... إلخ.

لكن أهم قيمة فلسفية جمالية بثها الشاعر الأندلسي في شعره حول مفهوم الموت قدرية الموت وحتميته على كل إنسان. وهذا عائد للإيمان بقضاء الله عز وجل، فالدنيا عندهم فانية زائلة، والموت هو الذي يحصد ما في الحياة من متع، وهذا الأمر كوّن العجز والتسليم بقوة الموت، وهو ما كوّن قيمة جمالية في شعرهم. لذا لم يكن هناك مجال للصراع مع قوة الخالق في حتمية الموت، وهذا أوجد عند بعضهم حزنًا وبكاءً ليس من قبيل الرفض، بل بسبب الغريزة وحب البقاء التي أوجدها الخالق في الإنسان.

وفلسفة كره الموت التي نجدها في شعرهم كان سببه تغيرًا في القيم الجمالية التي اعتادها الشاعر الأندلسي، فاللذة والمتعة اللتين أحسهما في شبابه ينغصهما عليه الشيب والعجز وإحساسٌ بقرب الموت، أو من الإصابة بالمرض، أو تقلب الزمان وزوال الملك. فهؤلاء وغيرهم نرى تمني الموت خلاصًا لهم مع كرهه. فهو أبرز القيم الروحية التي سيطرت على ذواتهم وإحساسهم بجمالية الحياة.

وعند تقدم العمر وظهور علامات الشيب والشيخوخة يكون الإنسان قد تسلم أولى رسائل الموت ومظاهره، «وإذا كان ثمة شيء أشد مرارة على النفس من الموت نفسه، فهو إحساس المرء بأنه سوف يموت»[2]. والشاعر كثيرًا ما نراه يبكي شبابه الذي كان فيه أشد قوة وقدرة جاعلاً من الموت شبحًا منتصبًا قبالته في كل لحظة؛ فالشيب يخمد

(١) الحب والحرب والحضارة والموت: ٢٧.
(٢) الإنسان والزمان: ١٠١.

ضوء الشباب الثاقب، و هو مطية الأجَل، و نذير الموت؛ بل ذهبوا أبعد من ذلك فعدوا الشيخوخة معنًى مرادفًا للموت نفسه، لما تولّده من إحساسٍ مُرٍّ بدنوِّ الأجل وانتهاء الحياة، و هو قدرٌ لا بُدَّ منه ولا خيار له سواه، فهو يَعقب الشباب بعد إدبارِه ببياضه الزاهر النافر[1]. فهذا ابن عبد ربه يقول:

سوادُ المرءِ تُنفدُهُ الليالي ... وإنْ كانتْ تَصيرُ إلى نَفادِ
فأسودُهُ يصيرُ إلى بَياضٍ ... وأبيضُهُ يعودُ إلى سَوادِ[2]

إنّ زمن الشاعر متحكم بجمال الشباب وقوته ومظهره، لذا نرى الليالي تنفدُهُ فتتبدل أحواله ويصبح الشيب دالًّا على التحول المستمر نحو الشيخوخة والوهن ثم الفناء. وفي قول الشاعر حسرة وألم على الشباب ومباهجه فهو يأس على الشباب وقصر عهده. ثم يعود في أخرى ليقدم لوحة شعرية يحاور فيه شبابه الذي غادره. يقول:

شَبابي كَيْفَ صِرْتَ إلى نَفادِ ... وَبُدِّلتَ البَياضَ مِنَ السَّوادِ
وَما أَبْقَى الحَوادِثُ مِنْكَ إلَّا ... كما أَبْقَتْ مِنَ القَمرِ الدَّآدي
فِرَاقُكَ عَرَّفَ الأَحْزَانَ قَلبي ... وَفَرَّقَ بَينَ جَفْني وَالرُّقَادِ
فَيا لنَعيمِ عَيْشٍ قَدْ تَوَلَّى ... ويا لِغليلِ حُزْنٍ مُسْتَفادِ[3]

إنّ جمال الروح وقيمته في شبابها، فإن تولى نرى عتابًا وسؤالاً عن سبب الرحيل. ونرى المصير بعده كيف لم تُبقِ الحوادث من العمر سوى القليل، و هذا القليل يقضيه في تحسّر وحزن وسهر، تحسر على نعيم كان فيه وحزن على قرب الرحيل، وترقب منه لموعد هذا الرحيل.

إنّ حتمية الموت أوجبت على الشعراء ذكر الفراق والضعف أمامه، وقدريته على الخلائق دون تميز بينهم، فالكل يشرب من كأس المنون، وبهذا المعنى صرح ابن دراج القسطلي في قوله:

بَقاءُ الخلائقِ رَهْنُ الفَناءِ ... وقَصْرُ التَّدانِي وَشيكُ التَّنائي
لقد حَلَّ مَنْ يَومُهُ لاقترابٍ ... وَقَدْ حانَ مَنْ عُمْرُه لانتِهاءِ
هلِ المُلكُ يَملِكُ ريبَ المَنونِ ... أَمِ العِزُّ يَصْرِفُ صَرْفَ القضاءِ
هُوَ الْمَوْتُ يصدَعُ شَمْلَ الجميعِ ... وَيَكسو الرُّبوعَ ثيابَ العفاءِ

(١) ينظر: الخوف في الشعر العربي: ١٦٩.
(٢) ديوان ابن عبد ربه: ٥٧.
(٣) ديوان ابن عبد ربه: ٥٥-٥٦.

يَبـــزَّ الحيـــاةَ بـــبطشٍ شـــديدٍ ويَلقـــى النفـــوسَ بـــدَاءٍ عيـــاءِ[1]

إنّ الموت لا يلبث أن يأتي مفرّقًا الشمل هادمًا لقيم الجمال التي كان الإنسان يتمتع بها، مكونًا قيمته الجديدة الخاصة بخلوده وحتميته، فالموت لا يُرَدُّ ولا تنفع معه الحيلة، ولا يمنعه مال ولا مُلك؛ لأنه قدر الجميع وهم أمامه سواء. وهذه أعظم قيم الموت في عدم تفريقه بين البشر.

ثم نرى ابن دراج يعود ليقول:

مَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ فيما يَحْسُنُ الجَزَعُ وأَوْجَـدَ اليَـأْسَ مَـا قَـدْ أَعْـدَمَ الطَّمَـعُ
وللمنايـــا سِـــهامٌ غيـــرُ طائِشَـــةٍ وذو النُّهـــى بجميـــلِ الصَّـــبْرِ مُـــدَّرِعُ
فـإن خَلَـتْ للأَسـى فِـي شـجوها سُـنَنٌ فطالَمـــا أُحْمِـــدَتْ فِـــي كَظْمِهـــا البِـــدَعُ
وللفجـــائِعِ أَقـــدارٌ وأَفْجَعُهـــا للـــنَّفْسِ حَيْـــثُ تـــرى أَظفارَهـــا تَقَـــعُ
كَـــأَنَّ للمـــوتِ فينـــا ثـــأْرَ مُحْـــتَكِمٍ فمـــا بغيـــرِ الكـــريمِ الحُـــرِّ يَقْتَنِـــعُ[2]

إنّ الشاعر عبّر عن موقفه من الموت بذكر الأمثال والحكم والتحلي بالصبر والإيمان بالموت بأنه قدر الله وقضاؤه، وموقفه هذا عزاء لأهل الفقيد لأنه لم يُظهر جزعه وحزنه بقدر إيصاله لوصاياه في الصبر والإيمان، ومن ثَمَّ نراه يُقرُّ بحتمية الموت وأنّ البكاء لا يعيد شيئًا من خلال طلبه بالكفّ عن الجزع والهلع، فهما لا يدفعان الموت، يقول مخاطبًا أحدهم:

فـارْدُدْ زَفِيـرَكَ عَمَّـا لا مَـرَدَّ لَـهُ وارْجِـعْ دُمُوعَـكَ عَمَّـنْ لَـيْسَ يُرْتَجَـعُ[3]

إنّ الموت حقيقة واقعة لا محالة، وما موقف الشاعر منه إلا صيغة من صيغ الإدراك الواعي بحقيقته ولما فيه من رهبة وجلال من ناحية، ولما فيه من راحة أبدية لبعضهم لكونه حلًّا للتأزم النفسي والقلق الاجتماعي من ناحية أخرى. إنّ التقابل بين الرؤيتين يؤدي إلى الخروج بنتيجة أنّ هناك تناقضًا بين القيم على مستوياتها كافّة نتيجة سيادة قيم لم يكن لها أن تسود، مما يخلق لدى الشاعر فراغًا لا سبيل إلى ملئه سوى وسيلة ناجحة لكي يحقق ذاته المسلوبة.

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي: ١١٩.
(٢) ديوان ابن دراج القسطلي: ٣١٦-٣١٧.
(٣) م. ن: ٣١٩.

من هنا كان الشاعر الأندلسي يعلل نفسه بهذا الضيف الثقيل الذي فُرض عليه، متخذًا من الموعظة ومواقف الأمم السابقة قيمة جمالية في تكوين ذاته وقدرية الموت عليه. فهذا ابن حزم يقول:

فما هذه الدارُ إنْ حُصِّلَتْ ... حقيقتُها غير طيفٍ ألَمْ
سيفنى العزيزُ ويفنى الذليل ... وتَفنى القُوى ويفنى الأكَمْ
يبيدُ الجميعُ فلا تغتَرِرْ ... بما لا يدومُ لمَن لم يَدُمْ
فأينَ الذينَ بنَوا تدمُرًا ... وباني البرابي وباني الهَرَمْ
وأينَ الأُلى أحكموا قادسًا ... وعقد قناطرِها والصَّنَمْ
أولئكَ أهلُ القوى قد مضوا ... كما قد مضى سَدُّ سيلِ العَرِمْ
فمن حالِ طفلٍ إلى صبوةٍ ... وشرخِ شبابٍ ويأتي الهَرَمْ
وتأتي المنيّةُ لا بُدَّ أنْ ... يُطيفَ بنا حكمُها الملتزمْ
فبادِرْ قبيلَ حلولِ الردى ... فتندم إذ ليس يُغني الندَمْ[1]

إنّ الشاعر يقرُّ بحقيقة الموت بأنه مدرك الجميع داعيًا لأخذ العظة من قوة الخالق في فناء الأمم السابقة، فلا يغتر أحد بما يفنى ولا يدوم، ثم يدعو لقيمة الإيمان والطاعة؛ لأنها هي التي تنجيه بعد الموت إمّا إلى نعيم مقيم أو نار وحميم. إنّ الإنسان مصيره الموت عزيزًا كان أم ذليلاً، لكن آية هذا الموت ورسوله في ذهاب القوة والعجز، ومن ثَمَّ ذهاب الألم الذي يسببه الموت. والشاعر حين تساؤله عن الأمم السابقة يريد أن يقيم الحجة ويكون قيمة عليا للموت الذي لا تقف أمامه قوة أو عظَمة. فالشاعر يعي تمامًا أنّ وجوده سينتهي من دون معرفة الزمان والمكان أو الطريقة التي يموت بها، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

فهذا ابن زيدون يقف أمام الموت عاجزًا مسلّيًا نفسه بموت الأنبياء ومَن شابههم، فهو حائرٌ في تفكيره على الرغم مما يمتلكه من خزين معرفي ديني وثقافي من خلال تجاربه مع الحياة، ومع هذا التفكير لم يصل إلى شيء سوى أن الموت لا يسلم منه أحد، ينسلُّ متخفّيًا عاجزًا أمامه الطبيب وكل من يمتلك المهارة والبراعة، يقول:

---

(١) ديوان ابن حزم الأندلسي: ١٤١. والأكم: هو الموضع الذي هو أشد ارتفاعًا مما حوله. ينظر: لسان العرب: مادة (أكم).
(٢) سورة لقمان: من الآية ٣٤.

إنَّمـــــا يُكسِـــــبُنا الحُـــــز ... نُ عَنـــــــــاءً لا غَنـــــــــاءَ
أنــــــتَ طَــــــبٌّ أنَّ داءَ الـــــ ... ـــــمَوتِ قَــــد أعيــــا الــــدَّواءَ
مُتَـــــــــأسٍّ إنَّ ذاكَ الـــــــ ... ـــــخَطبَ غـــــالَ الأنبِيـــــاءَ
وَسَـــــيَفنى المَـــــلَأُ الأعـــــ ... ـــــلى إذا مـــــا اللهُ شـــــاءَ(١)

أما الزاهد أبو إسحاق الألبيري فيبرز لنا من خلال فلسفته في الموت، فهو الواعظ الحكيم الذي تنبّه على سلبية الحياة ونسيان الموت، فراح يحثّ على الاعتبار بالموت؛ لأنه واقف للإنسان دومًا وهو قريب منه أينما كان، يقول:

نَحـــنُ فـــي مَنـــزِلِ الفَنـــاءِ وَلَكِـــن ... هُـــوَ بـــابٌ إلـــى البَقـــاءِ وَسُـــلَّمْ
وَرَحـــى المَـــوتِ تَســـتَديرُ عَلَينـــا ... أبَـــدًا تَطحَـــنُ الجَميـــعَ وَتَهشِـــمْ
وَأنـــا مـــوقِنٌ بِـــذاكَ عَلـــيمٌ ... وَفِعـــالي فِعـــالُ مَـــن لَـــيسَ يَعلَـــمْ(٢)

إنّ الشاعر يقرر حقيقة الموت بأنه حتم على البشر يصيب الجميع، فهو كالرحى تستدير فتطحن كل من يقف أمامها، وهو الباب لحياةٍ أخرى هي في الحقيقة دار البقاء والخلود. والشاعر يعلم ويوقن بهذا الأجل وحتمية الموت إلا أنّ فعاله وطلبه للدنيا ولهوه فيها يدل على غير ذلك. هي غريزة حب البقاء، فقيمة الحياة عند الإنسان وشعوره بالجمال يفوق ــ أحيانًا ــ يقينه وعلمه بالفناء.

أمّا قيمة الموت وفلسفته عند الشاعر ابن الحدّاد الأندلسي فتبرز في غموضه وعدم فهمه لكُنهه، فهو جاهل عنها؛ لأنّ العقل البشري عاجز أمام تفسيره، إذ يعدُّ الموت أمرًا غامضًا أو أعظم سرٍّ يواجههم. يقول:

إنَّ المَنِيَّـــةَ لـــيس يُـــدْرَكُ كُنْهُهَـــا ... فَنَوَافِـــذُ الأفْهَـــامِ قـــد وَقَفَـــتْ هُنَـــا
فـــي كـــلِّ شـــيءٍ للأنَـــام مُحَـــذِّرٌ ... مـــا كـــانَ حَـــذَرَهُ شُـــعَيْبٌ مَـــدْيَنَا
وَحَيَاتُنَـــا سَـــفَرٌ وَمَوْطِنُنَـــا الـــرَّدَى ... لَكِـــنْ كَرِهْنَـــا أنْ نُحِـــلَّ المَوْطِنَـــا
لا بُـــدَّ أنْ تَتْلُـــو الحيـــاةَ مَنِيَّـــةٌ ... مَـــنْ شَـــكَّ أنَّ اليـــومَ يُزْجِـــي المَوْهِنَـــا
لا تَـــرْجُ إبقـــاءَ البَقَـــاءِ علـــى امـــرِئٍ ... كُـــلُّ النُّفُـــوْسِ تَحِـــلُّ أفْنيـــةَ الفَنَـــا(٣)

(١) ديوان ابن زيدون: ١٢٧، وينظر: ١٥٣.
(٢) ديوان أبي إسحاق الألبيري: ٥٧-٥٨.
(٣) ديوان ابن الحداد الأندلسي: ٢٨٠.

لدى الإنسان ميل شديد إلى الخوف من المجهول والغريب غير المتوقع. وتبرز لديه قيمة الموت من خلال القلق منه لأنه ينهي فرصة الذي يركز على هذه الحياة الدنيا في سعيه نحو تحقيق أهدافه فيها على الرغم من علمه بزوالها وفنائها. والإنسان مهما أوتي من العلم والمعرفة فإنه لا يستطيع فك لغز الموت ومعرفة حقيقته وجوهره، والشاعر قام بتفسير فلسفة الوجود وقيمتها الجمالية من خلال الحياة والموت، فالحياة سفر والموت موطن ومستقر إلى حين، إلا أنّ الإنسان كره الحلول في هذا الموطن (وحياتنا سفر وموطننا الردى...)، وأنّ هذه الحياة لا بدَّ من أن يتلوها الموت؛ لأنّ الأمر حتمي كما النهار، إذ يتلو ما تبقى من الليل.

إنّ المسألة الأساس تكمن في أنّ رؤية الإنسان لحتمية الموت والخوف منه مع غموضه وجهله لكنهِهِ يكون ضروريًّا لتكوين الموت الجمالي في الوعي الشعري عند الشاعر الأندلسي. فكل وعي يبدأ بمعرفة حدوده ووضعه في إطار هذه الحدود لكي يعرف ما يريد ويتمكن من تجاوزها. إذن، فإنّ الاعتراف بكلية الموت وغموضه هي الخطوة الأولى لتحويله. ويتضمن هذا الاعتراف ما هو جوهري من فكرة الموت، وهي أنها النهاية. وهذا يؤدي إلى أن يرى الوعي ذاته وموتها معًا من حيث هو وجود من أجل الموت، لذا وجدنا كثيرًا من الشعراء من تعمق عنده هذه الرؤية بجعل الذات تستحضر موتها وتحياه، بدلاً من انتظار حضوره إليها، أي تبادر النفس وتكون قيمتها الجمالية في الموت وتحياه. وهذه المبادرة تعني كسر الحدود التي تقيمها جبرية الموت على الذات الإنسانية واستحضار حياتها في الموت، مع أنّ الموت سلب مطلق ــ عدم ــ إلا أنه عند الشاعر له وجود ومعنى[1]. فالذات كلما أحست بقرب الموت منها تمسكت بقيمة الحياة وكوّنت للموت مفهومًا جماليًّا ينجيه من مشاق الحياة ويحوله نحو البقاء الذي يرجوه ــ الجنة ــ لكن بقي التشاؤم من الحياة والزهد فيها من أهم القيم التي بثّها شعراء الأندلس ولا سيما ممن مُني بمحنة السجن. فهذا المرواني الطليق يقول:

أَلا إِنَّ دَهـرًا هادِمًـا كـلَّ مـا نبنـي	سَـيَبلى كَمـا يُبلـي وَيَفنـى كَمـا يُفنـي
وَمـا الفَـوزُ فـي الـدنيا هُـوَ الفـوز إِنَّمـا	يَفـوز الفَتـى بـالربح فيهـا مَـع الغـبنِ
يُجـازى ببـؤسِ عَـن لَذيـذ نعيمهـا	وَيجنـى الـرَّدى مِمّـا غـدت كفُّـه تجنـي

(١) ينظر: جماليات الشعر العربي: ٣١٦-٣١٧.

وَلا شــكَّ أن الحــزنَ يَجــري لِغايَــةٍ وَلَكِــنَّ نفــس المَــرءِ ســيئةُ الظّــنِّ[1]

إنّ فناء العالم الشعري الذي كونه الطليق وأطّر فيه تشاؤمه جاء كرَدٍّ فعلٍ من ذاته التي ذاقت البؤس وحُرِمت من لذيذ نعيم الدنيا، فالموت نتيجة حتمية لديه و هي تكمل بقدومها ما فعلت الدنيا به من تحطيم وتكسير لذاته، لكنه يعلل نفسه ويسكنها بأنّ دهره سيلقى مصيرًا مثله، فكلاهما رهين للموت.

والموت الذي يُفَرُّ منه ويُحتَجَبُ عنه تمنّاه البعض وطلبه؛ لأنهم تيقنوا أنّ في الموت راحة ورحمة لهم ينقذهم من الحياة وذل السجن والخوف من المصير المجهول. فهذا المعتمد بن عباد يبلغ به اليأس مداه وهو الذي فقد الملك والعز فيتمنى الموت، يقول:

لِنَفســي إِلــى لُقيــا الحِمــامِ تَشــوُّفٌ سِـوايَ يُحِـبُّ العَـيشَ فـي سـاقِهِ حَجَـلُ[2]

ويقول في أخرى:

دعــا لــي بالبقــاءِ وكيــفَ يَهــوى أســيرٌ أن يطــولَ بــه البقــاءُ
ألــيسَ المــوتُ أروحَ مــن حيــاةٍ يطــولُ علــى الشــقيِّ بهــا الشــقاءُ
فمــن يــكُ مــن هــواه لقــاءُ حُــبٍّ فــإنَّ هــواي مِــن حتفــي اللقــاءُ[3]

إنّ قيمة الحياة وجمالها أن يعيشها المرء بحرية و عز، لكن حين يُسلب الحرية بالسجن ويفقد العز بالذل يكون الموت هو الخلاص من هذه الحياة. والشاعر يؤكد هذا بسؤاله عن الموت، وأنه أكثر راحة وأفضل من حياة يطول فيها عمر الشقاء والذل. فالذات الإنسانية تجد في اللقاء بمن يحب أنسًا وفرحًا لها، و هذا ما يشعر به فهو محب للموت غير كاره له؛ لأنه قيمة جمالية عند الشاعر؛ ولكنه يعلل نفسه بأنه ليس الوحيد الذي أدركه هذا المصير لأنّ الكل فيه سواء. يقول:

سَيُســلي الــنَّفسَ عمَّــن فــاتَ عِلمــي بِــأنَّ الكُــلّ يُدرِكُــهُ الفَنــاءُ[4]

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبي: ٧٨.
(٢) ديوان المعتمد بن عباد: ١١١.
(٣) م. ن: ٩٠.
(٤) م. ن: ٩٠.

ويؤكد الشعراء أكثر من سواهم إلى التحام الصلة بين الحب والموت، ومرَدُّ ذلك عندهم أنّ الكون يغدو مقفرًا كأنه العدم إذا لم يعمره الحب الصادق. وإذا صادف أنّ الصلة بين المحب ومحبوبه لم يتحقق لها الدوام فإنّ المحبّ يعتريه ما يعتريه، حتى تلح الرغبة عليه فيكون هذا الإلحاح مصدرًا للجزع والعذاب لا يمكن أن يتبدد إلا بالفناء ولا راحة فيه إلا بطلب الموت(١). ويكون لجمال الموت عندهم أعظم قيمة نفسية، ففيه - بحسب رأي المحبين - قرب من المحبوب بعدما يئس من قربه في الحياة الدنيا. فإذا ما أراد المحبون أن يجعلوا «من الموت والحب شيئين إيجابيين تقتضيهما طبيعة الوجود من حيث هو وجود»(٢)، كان لا بد من أن تكون الصلة بين النقيضين قائمة في جمالية وقيمة يحقق المستوى الطبيعي من الحب ويكون التصور الذي يتمناه في الموت.

وابن زيدون يؤكد أنّ في حبه ضياعه من الدنيا وفناءه، فالشوق مميت للشاعر. يقول في مثل هذا التأكيد:

وَمـا كُنـتُ إذ مَلّكتُـكَ القَلـبَ عالِمًـا ... بِـأنّيَ عَـن حَتفـي بِكَفّـيَ باحِـثُ
فَـدَيتُكَ إنَّ الشَّـوقَ لـي مُـذ هَجَرتَنـي ... مُميتٌ فَهَل لي مِن وِصالِكَ باعِثُ(٣)

فقيمة البيتين الجمالية تكمن في الحب والشوق والهوى والبكاء عليه. والبكاء على الهجر وعدم الوصال، فالشاعر ضائعٌ بينهما غير مستقر في عواطفه ومشاعره وهو المشهور بالحب والغرام والعشق.

إنّ شعراء الأندلس نظروا إلى الموت نظرات متفاوتة إلا أنها في الأحوال كلها تصب في قيمة ومجرى جمالي واحد. فكان في تصوير القرآن الكريم للموت لهم مَعينًا يغرفون منه، وهذا ما أحدث عند الشاعر المسلم تغييرًا كبيرًا في النظر نحو الموت، فحتميتُهُ وتوقيتُهُ وقدريته من أهم القيم التي آمن بها الشاعر الأندلسي. لذا وجدنا كثيرًا منهم يعود ويعتنق فكرة الموت كما هي إيمانًا منهم بهذا المصير المحتوم، أو كان شعورًا بانطفاء الشعاع الأخير الذي يقوّي صلتهم بالحياة المتمثل بالصِّبا والشباب. كما اتجهوا نحو إعلاء قيمة الروح وتكوين جماليتها في أشعارهم من خلال اهتمامهم بالجانب النفسي

(١) ينظر: الموت والعبقرية: ٢١-٢٢.
(٢) م. ن: ٢٢.
(٣) ديوان ابن زيدون: ١٨٩.

والروحي للإنسان من دون الجسد والانشغال بمتعه الفانية. وشعراء الأندلس بخطابهم للروح أكدوا «أنّ الموت ليس نهاية الإنسان الأبدية إنما هو بداية لحياة دائمة لا تنتهي»[1]. لذا أحبوا الموت وطلبوه لتحطيمه الحواجز ومنحه النفس قيمة عليا وجمالاً في عالمها.

والأندلسي دعا للاستعداد لما بعد الموت والاتعاظ بما فعله بالأمم السابقة، وبهذا يكون في الموت إصلاح لما في الطبع من عوج وما في العقول من التواء. ومع إدراك الشعراء لحتمية الموت وقدريته، إلا أنهم كرهوا الموت وذموه لتحطيمه قيمة الحياة وجمالية العيش فيه مع وجود الكثير من السلبيات.

إنّ الموت الجمالي الذي يؤسسه الشاعر في وعيه ويقدمه في شعره من خلال خطاب ذاته لذوات الآخرين يريد أن يصل إلى نقطة تحفز على استباق الموت ومواجهته بالوجود للحياة وحمايتها والتمسك بما فيها من قيم جمالية ظاهرة أم مخفية حسية كانت أم روحية. وبهذا يكون قد حقق أقصى ما يسمح به الوقت من ممكنات، ومن ثَمّ الوصول إلى المعنى الحقيقي من وراء حياته ومماته[2].

وهكذا تحوّل الموت إلى قيمة جمالية من جهة المعنى، وأصبح هدفًا وغايةً يحرص الوعي الشعري العربي في الأندلس على امتلاكها والتفاخر بها. فالذات الشعرية تتأسس وتكون وجودًا حيًّا في قلب الموت فتجعله جميلاً، إذ تمنحه قيمتها الإنسانية المطلقة.

إنّ خاصية الوعي لدى الشاعر الأندلسي تكمن في أنه حاول أن يحب موته وقدره ليغيره وليبدأ تأسيس ذاته وقيمتها الجمالية من خلال تكوينه للمعنى.

(١) الموت كيف نفهمه ونعمل له: ١٥.
(٢) ينظر: جماليات الشعر العربي: ٣١٩-٣٢٢.